بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة صلاة الجمعة لفضيلة الشيخ الدكتور أحمد سامر القباني

سلسلة خطب التغيير ٨

أهل الحقّ قلّة

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين القويم، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، حمداً لك ربي على نعمائك، وشكراً لك على الآلائك، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، وأشهد أن مُحَمَّداً ورسوله، صفيه من بين خلقه وحبيبه، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون.

وبعد عباد الله، فإني أوصيكم ونفسي المذنبة بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإياي على طاعته، وأحذركم ونفسي من عصيانه ومخالفة أمره، وأستفتح بالذي هو خير، اعلموا أن خير الكلام كلام الله، وأن خير الهدي هدي رسول الله ﷺ، وأن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيد﴾ [الحج: ١-٢].

إِلَهِي لا تُعَذِّبنِي فَإِنِّي ... مُقِرٌّ بِالذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
وَمَا لِي حِيلَةٌ إِلا رَجَائِي ... لِعَفوِكَ إِنْ عَفَوتَ وَحُسنُ ظَنِّي
وَكَمْ مِن زَلَّةٍ لِذِي الخَطَايَا ... وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضلٍ وَمَنِّ
إِذَا فَكَّرتُ فِي نَدَمِي عَلَيهَا ... عَضَضْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي
أَهِيمُ بِزَهرَةِ الدُّنيَا فُتُونَاً ... وَأَقْطَعُ طُولَ عُمرِي بِالتَّمَنِّي
وَلَو أَنِّي صَدَقْتُ الزُّهدَ فِيهَا ... قَلَبْتُ لأَهلِهَا ظَهرَ الْمِجَنِّ
يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيراً وَإِنِّي ... لَشَرُّ الخَلقِ إِنْ لَم تَعفُ عَنِّي

اللهم اعف عنا يا عفو، واغفر لنا يا غفار، وقنا عذاب النار.

اللهم إني أعوذ بك من التكلف لما لا أعلم، كما أعوذ بك من العجب بما أعلم، وأعوذ بك اللهم من السلاطة والهذر، كما أعوذ بك من العِيِّ والحَصَر، أعذني ربي من حَصَر وعيٍّ، ومن نفس أعالجها علاجاً.

وبعد أيها الإخوة المؤمنون: كنا قد بدأنا قبل شهر رمضان المبارك بالحديث عن سلسلة التغيير، التغيير الذي ينبغي أن يكون دائماً ومتجدداً عند كل واحد منا، فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، بيَّنا له طريق الخير وطريق الشر، فالإنسان كثيراً ما يَغفل عن الله سبحانه وتعالى، وتتعرض علاقته بالله وصلته بالله سبحانه إلى انكماشٍ وأحياناً إلى انقطاعٍ في هذه الصلة، وأما معاملتنا مع بعضنا البعض فَتَكاد تكون من أسوء المعاملات بين شعوب العالم، فالأمراض النفسية الموجودة عند العرب والمسلمين يَكادون ينفردون بها بين البسيطة، من مكر لبعضهم، وخداع، وغشّ، وعدم رحمة، وحقد، وحسدٍ، وغيبةٍ، ونميمة، والحقيقة أن المجتمع بحاجة إلى تغيير، ولكن المجتمع لا يُمكن أن ينطلق إلا مِن كل واحد منا، فالمجتمع أنا وأنت، وقلت لحضراتكم إن ألمانيا واليابان تعرضتا لهزيمة نكراء إبّان الحرب العالمية الثانية، مَضت سنون قليلة ليست بالكثيرة أعاد هؤلاء الناس تصنيع أنفسهم من جديد، وانطلقوا في ركب الحضارة والتقنية والتكنولوجيا والعلم، وإذا بهاتين الدولتين اليوم من أكبر دول العالم اقتصادياً وتكنولوجياً، ومِن أقوى دول العالم، ولكن الشعب العربي المسلم يَعيش في مأساة، هذه المأساة لها أسباب كثيرة، منها المؤامرات الخارجية، ومنها أعداء الإسلام الذين يمكرون بنا ليل نهار، ولكن إذا رجعنا إلى قرارة أنفسنا، إذا رجع كل واحد منا إلى قرارة نفسه وجد أنه غير راض عن نفسه، وأن المشكلة في الحقيقة انطلقت منه قبل أن تكون كيداً مِن أعدائه ومؤامرة من الخارج، فنحن أدرى بأنفسنا، وكل واحد أدرى كيف هي صلته بالله؟ هل هي متينة أم هي هشة؟ كيف معاملته مع أخيه المؤمن؟ هل هي صالحة؟ إذا نظرنا بين الناس، ونحن سألنا كثيراً من الناس: هل وجدتم أننا في هذه الأزمة التي عصفت بالأخضر واليابس في هذا البلد المبارك الشام، هل لاحظتم أننا تقدمنا في أخلاقنا وفي سلوكنا وفي حسن صلتنا بالله أم أننا تراجعنا؟ وكان الجواب من الكثرة الكاثرة أننا في انحدار وانحطاط ولم نستفد من موعظة هذه الأزمة، وإذا لم يجبنا هؤلاء الناس فلسنا بحاجة إلى إجابات، فواقعنا هو الذي يُملي علينا ونحن نرى ما حلَّ بالمجتمع اليوم من مشكلات أخلاقية وثقافية واجتماعية وغير ذلك، نَضع الملامة على كثير من

الأشياء، والمِشْجَبُ جاهزٌ، يُمكننا أن نُعلِّق هذه البلايا والمصائب في أي مكان نُريده، ولكن الحقيقة أننا أدرى بأنفسنا.

قُلنا: إن التغيير يجب أن يمر بمراحل، وهي المرحلة الفكرية قبل المرحلة الواقعية، إذا اقتنع الفكر بشيء والعقل بشيء فإنه يُملي عليك أن تسير وفق هذا الشيء، فالموضوع الفكري يجب أن ينبع أولاً مِن كونك مؤمناً مسلماً، وأن تعلم أن هناك عدواً متربصاً ليل نهار وهو الشيطان، قبل أن ننتقل إلى بقية الأعداء، الذي أمرنا الله عز وجل باتخاذه عدواً فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فاتخذه كثير من المؤمنين والمسلمين صديقاً، نعم اتخذوه صديقاً، والشيطان ليس أسطورة تحكى أو حكاية تُملى، ليس من الخيال، لقد حدثنا القرآن عنه، فهو حقيقة واقعية، في أكثر من سورة، وفي اكثر من آية، غايةُ ما في الأمر أنه استتر عن أعيينا، ولكن هذا لا يعني أنه غير موجود فهو موجود، ولا يعني أن وسوسته غير موجودة فهي موجودة، ولا يعني أنه لم يحقّق الانتصار فقد انتصر، كيف؟ الشيطان ينتصر؟ إذا أتيت بشخصين فكلفتهما بمهمة، فأحدهما أنجز المهمة، والثاني لم ينجز المهمة، فأيهما الرابح، وأيهما الذي حقق المطلوب؟ الذي أنجز المهمة.

الله سبحانه وتعالى خلقنا ونحن فهمنا أننا خلقنا مِن أجل أن نكبر وأن نحقق المستقبل الجيد، البيت والسيارة والزوجة والأولاد، وأن نَستغني عن الناس، هذا شيء من ضروريات الحياة لا أحد يتكلم فيه، ولا يوجد عاقل يناقش فيه، ولكن نسي الإنسان المؤمن أنه خُلق لغاية، ومن أجل قضية، وأن عنده في الحياة هَدفاً يَجب أن يسعى وأن يبذل كل ما أعطاه الله إياه مِن النعم في سبيل تحقيق هذا الهدف، فنسينا الهدف ووقفنا عند متاع الحياة الدنيا التي لطالما تكلمنا عنها بأنها غرور وأننا سنفارق هذه الحياة.

البعض يَضع بصمةً قبل أن يغادر، والبعض يأتي إلى هذه الدنيا ويذهب مِن هذه الدنيا ولا يَسمع به أحد، ولعلّ قائلاً يقول نعم هكذا قال لنا المشايخ: إن الأولياء يَجب أن يكونوا أخفياء، هكذا كان رسول الله ﷺ وصَحابته الكرام وآل بيته الأطهار رضي الله عنهم، أهكذا كانوا؟ أم كان الواحد منهم أمة؟ نَسينا المهمة ولم نقم بتنفيذها، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، الإنسان خليفة الله في الأرض ليحقق السلام والحب والأمان، وليعبد الله عز وجل لا يُشرك به شيئاً، وليعيش المؤمن مع أخيه المؤمن في تعامل صحيح، ولنحقق وحدانية الله تعالى في هذه الأرض، مهمة فَشلنا فيها، وإبليس تَوَعَّد،

وأخذ على عاتقه مهمة لنفسه لم يُوكله بها أحد، فنجح في هذه المهمة، كيف؟ سنقف عند آيات من سورة الأعراف وآيات من سورة الإسراء.

أما آيات سورة الأعراف [١١-١٧] تحفظونها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، تُريد ألا أُدخلك جهنم الآن؟ لك ذلك ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لاحظ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: والله ليلاً نهاراً ليس عندي عمل إلا إغواء بني البشر، وبدأ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، لأبينا آدم وأمّنا حواء، أخرجهما من الجنة، نزلوا إلى الأرض، وبدأ فِلمٌ طويلٌ، مسلسلٌ ذو حلقات كثيرة، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ لن أدعهم يقولوا لك : الحمد لله ولا الشكر لله، لا بالأقوال ولا بالأفعال، ولا بالواقع التعاملي، ولا بصلتهم بك.

الآيات الثانية في سورة الإسراء [٦٢-٦٥] قال إبليس لرب العزة والجلال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أنا أسجد لآدم؟ فضلته علي وأنا إبليس طاووس الملائكة؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لأستولين، الاحتناك هو الاستيلاء، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾، أي: لآدم، أريد أن أستولي عليهم استيلاءً، ولاحظ كلمة الاستيلاء الاحتناك، ولاحظ ﴿لَأَقعُدَنَّ لَهُم﴾، ليس لي عمل غيرهم، وهنا ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال له رب العزة والجلال: ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ لأنه قال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾، قال له: أخرناك إلى يوم القيامة، ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ فمن تبعك منهم ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ وسوسة الشيطان نسمعها أحياناً بسرنا الداخلي، ليس لها صوت، تُحدثنا النفس الأمارة بالسوء، ويُحدثنا الشيطان، حديث النفس، تجد أن إنساناً كان جالساً مستقيماً وإذا به يخرج لمعصية، ما الذي جعلك تذهب لمعصية الله؟ لأن الشيطان استولى استيلاءً كاملاً، يَستولي على النفوس، ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ

مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، قال له ربنا: اذهب وافعل ما تريد، وسوسة، وجنودك راكبين راجلين، لأنَّ الراجل هو الذي يمشي على أرجله، والراكب هو الذي يركب على الفرس، ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي بكل ما استطعت من قوة، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُم﴾ أعطهم وعوداً وأمانيَّ، قال المفسرون: شاركهم في الأموال بأن تدلهم على الحرام، والأولاد بأنه تدلهم على الزنا، ﴿وَعِدهُم﴾ دائماً الإنسان يَغره طول الأمل، يقول له: غداً تصلي، غداً تتوب، ﴿وَعِدْهُم وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

ما أريد الوقوف عنده:

الآيات الأولى في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾ [الأعراف: ١٧] وهنا قال له: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، فإذاً الذين يُنفذون أوامر الله والذين يُنفذون هذه المهمة التي أُنيطت بهم قِلَّة، أَلا يجب أن نكون من هذه القلة؟ أم نريد نكون مثلنا مثل كل هؤلاء الناس يأتون ويذهبون، ولا يُقدمون شيئاً لا لدينهم ولا لإسلامهم ولا لقضيتهم ولا لبلدهم.

القلة مَدحها القرآن، والكثرة ذمها القرآن، نريد أن نكون من هذا القليل، يَجب أن نسعى إلى أن نكون من هذا القليل، الله عز وجل يقول في الكثرة: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُون﴾ [البقرة: ١٠٠] يَعني نجح إبليس في المهمة التي وكِّل بها، كَفَّر ثلاثة أرباع أهل الأرض، سبعة ونصف مليار على الأرض، فيها مسلمون مليار ونصف أو أقل قليلاً، والباقي إما يَجحد وجود الله، أو يَجعل مع الله إلهاً آخر، الله عز وجل قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُون﴾ [البقرة: ١٠٠] وقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُون﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُون﴾ [التوبة: ٨] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُون﴾ [المائدة: ١٠٣] وقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُون﴾ [هود: ١٧] وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُون﴾ [النحل: ٨٣] وقال: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون﴾ [المؤمنون: ٧٠] وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] عشرات إن لم تكن مئات الآيات في القرآن تَدل على أن أكثر الناس لا يؤمنون، لا يعقلون، لا يعبدون الله، لا يشكرون الله، يُلقون السمع، وأكثرهم الفاسقون والكافرون، يَعني نحن نسمع كلام الله لَكن لا نستجيب، نسمع كلام رسول الله ﷺ، لكن الاستجابة في أرض الواقع غير موجودة، وقال سبحانه وتعالى عن المؤمنين القلة قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ٨٣] وقال: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وقال: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُم﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] وقال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود/٤٠] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤] وقال عن أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠] وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

لذلك عندما نقرأ هذه الآيات ونَرى أن إبليس نجح في مهمته في إغواء أكثر أهل الأرض، وأن المؤمنين قلة، وأن أصحاب القضية قلة، السؤال: هل تُريد أن تكون من هذه القلة، أم تريد أن تكون من هذه الكثرة الكاثرة التي تأتي وتذهب دون أن تُقدم شيئاً إلى دينها وإلى إسلامها وإلى قضيتها؟ هل تريد أن تعيش بلا هدف في هذه الحياة، أم تَريد أن تكون صاحب هدف؟.

الحبيب المصطفى ﷺ يقول: -الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ- يقول الرسول ﷺ فيه: ((يُوشك أن تداعى عليكم الأمم -أن تجتمع عليكم الأمم- كما تداعى الأكلة على قصعتها)) -الناس إذا كانوا بالعشرات ولا يوجد إلا قصعة واحدة كيف يفعلون؟ يَتحلقون تحلقاً كاملاً، انظر إلى هذا التشبيه مِن سيد الخلق مُحمَّد ﷺ، ((يُوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أَمِن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟)) أي: هل نحن قلة؟ أم القصعة صغيرة نحن كُثُر؟ ((أَمِن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا)) مِليار ونصف، قال: ((بل أنتم كثير، ولكن غثاءٌ كغثاء السيل، ولَينزعنَّ الله مِن قلوب أعدائكم مهابتكم)) لَيس لكم قيمة، هل يُوجد قتل وتدمير وذبح

وعنف وتخريب وتدمير إلا في البلاد العربية والإسلامية؟ يَكره بعضنا بعضاً، ولا نحسن التعامل فيما بيننا، صِلتنا بالله سيئة، اللهم إلا القليل، نحن لا نُعمم الكلام، هذا الخير لا يَنقضي في أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم، لكن نحن نقرأ كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، لَعله يُؤثر فينا، فيستطيع الواحد فينا العمل لدينه ولقضيته ولإسلامه ولبلده ضمن المساحة المتاحة له، دون أن يعيش هكذا، قال: ((بل أنتم كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل)) تَعرفون غثاء السيل، عندما يكون السيل نازلاً من الجبل يحمل في طريقه جميع القاذورات، تجد الماء عالياً إذا نظرت إليه ويكون في حقيقته غثاء، الماء يكون قليلاً ولكن حمل معه غثاء، قال: ((بل أنتم كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم مهابتكم، وليغرسنّ في قلوبكم الوَهَن)) الله يَغرس في قلوبنا الوهن في آخر الزمان ((قالوا: وما الوَهَن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)) لَو سألنا أنفسنا: هل أنا الآن مُستعد للقاء الله؟ سؤال بسيط، الكثير مِنَّا سيقول: لا والله، نُريد أن نتوب، لذلك الخطبة الماضية عندما جَاء الصحابي وقال لرسول الله: أوصني، فقال له: ((صلِّ صلاة مودِّع)) اعتبر أن هذه الصلاة هي الأخيرة، هل أنت مُستعد للقاء الله؟ قال: ((حب الدنيا وكراهية الموت)).

فنحن رغم كل هذه الحروب عَلينا من الخارج، والحروب من الداخل، الشيطان ليلاً نهاراً ركبنا وركب أولادنا ونساءنا وبناتنا، بأفكار ووسوسات، ووسائل اتصال حديثة، وفضائيات، وبُعد عن الله سبحانه وتعالى، يَكفينا فضل الله سبحانه وتعالى في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن سيدنا أنس رضي الله عنه، لا نُريد اليأس، بل العمل، حتى نُحرك أنفسنا قليلاً، يَكفينا أمة العروبة والإسلام نوم هذا النوم والسبات الطويل، يقول فيه سيدنا أنس: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: ((يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا –معاصي وذنوب وآثام– ثم لَقيتني لا تُشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة)) كم فضل الله علينا عظيم، رغم كل تقصيرنا، هذا الكلام ليس لليأس والقنوط، إنه للعمل، لأن فضل الله علينا عظيم.

وأختم هذه الخطبة بهذا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أُغوي بني آدم ما دَامت الأرواح فيهم، فقال له رب العزة والجلال: فبعزتي وجلالي لا أَبرح أغفر لهم ما استغفروني)) هو تَوعَّد وربنا

وعد، ((وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني)) قولوا: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، أقول هذا القول، وأستغفر الله لي ولكم، فيا فوز المستغفرين استغفروا الله.

بتصرف